نشوء الحضارات ونموها في المنظور القرآني

عماد الدين خليل*

في ختام سورة يوسف نقرأ هذه الآية الكريمة {لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون} (يوسف: ١١١). وهي تضعنا قبالة التعامل مع التاريخ بكل ما ينطوي عليه هذا الفرع المعرفي من شروط أساسية: فالسرد التاريخي في المنظور القرآني يستهدف البحث عن العبرة، أي الجوهر والمغزى، وهو خطاب موجه لذوي البصيرة القادرين على سبر هذا المغزى، والإفادة منه في واقع حياتهم والتخطيط لمستقبلهم، وليس لذوي المصالح القريبة والتحزبات والأهواء. وهو - أيضا - معطى يحمل مصداقيته المنبثقة عن علم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي وسع كل شئ علما. فهو - إذن - ليس رجما بالغيب، ولا أهواء وظنونا، كما هو الحال في العديد من الأعمال التاريخية الوضعية.

فإذا مضينا لتدارس القرآن الكريم كله، فإننا سنجد كتاب الله يخصص مساحات واسعة، قد تزيد عن نصف القرآن للخبر المتحقق في الماضي، والسنن التي تحكمه، أي للتاريخ وقوانين الحركة التاريخية.

إن قصص الأنبياء والشهداء والقديسين، أخبار الأمم والشعوب والجماعات والقرى... حلقات الصراع المتطاول بين الحق والباطل والهدى والضلال...

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية التربية بجامعة الموصل.

كلها في نهاية الأمر عروض تاريخية تغذي هذا الفرع المعرفي بالمزيد من المفردات والإضاءات.

والتعامل القرآني مع التاريخ يأخذ صيغاً مختلفة تتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يمتاز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الإنسان في الزمن والمكان أي في التاريخ. فإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك تلك الآيات والمقاطع القرآنية التي يحدثنا عنها المفسرون في موضوع أسباب النزول، والتي جاءت في أعقاب عدد مزدحم من أحداث السيرة لكي تعلق وتعقب وتفند وتلامس وتبني وتوجه وتصوغ، استطعنا أن نتبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الكبيرة التي منحها القرآن الكريم للتاريخ.

إن جانباً كبيرًا من سور القرآن الكريم وآياته البينات ينصب على إخطار البشرية بالنذير الإلهي، وينبثق عن رؤية وتفحص التاريخ، وبمقدور المرء أن يلحظ - عبر تعامله مع كتاب الله - كيف تتهاوى الجدران بين الماضي والحاضر والمستقبل، كيف يلتقي زمن الأرض وزمن السماء، قصة الخليقة ويوم الحساب، عند اللحظة الراهنة، حيث تصير حركة التاريخ، التي يتسع لها الكون، حركة متوحدة لا ينفصل فيها زمن عن زمن، ولا مكان عن مكان، وحيث تغدو السنن والنواميس، المفاتيح الضرورية التي لابد منها لفهم تدفق الحياة والوجود، وتشكل المصائر والمقدّرات. ولنا أن نتصور القيمة البالغة التي أولاها كتاب الله، وسنة رسوله [١] ﷺ لأحداث الماضي ذات الدلالة، أي للتاريخ.

يعتمد القرآن الكريم في معطياته عن الوحدة الاجتماعية ومسارها التاريخي مفردات من مثل: (الأمة والأمم)[٢]، (القرية والقرى وأهل القرى)[٣]، (أم

---

[١] يقوم الباحث بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو بإعداد مؤلف بعنوان (دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة) يفهرس ويحلل الأحاديث الصحيحة في هذا السياق.

[٢] ترد فيما يزيد عن ستين موضعاً. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٦٤م، ص ٨٠.

[٣] ترد فيما يقرب من ستين موضعاً: ينظر محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع نفسه، ص ٥٤٣ - ٥٤٤.

القرى)[٤]، (المدينة)[٥]، (المدائن)[٦]، (الحاضرة)[٧]، (الجمع)[٨]، (القرون)[٩]. فضلاً عن (القبائل) و (الشعوب) اللتين تردان مرة واحدة في الآية ١٣ من سورة الحجرات. ولا نكاد نجد فيه المفردات المعتمدة في الدراسات الحديثة من مثل (الدولة) و (الحضارة). وترد فيه إحدى مشتقات (الاستعمار)[١٠] بمعنى العمران البشري الذي اعتمده ابن خلدون في مقدمته، و (الاستخلاف) فيما سنتحدث عنه في هذه الصفحات.

ومهما يكن من أمر فإن دلالة الكلمات هي التي تعنينا في هذا السياق، وعندما يتحدث القرآن الكريم عن ازدهار القرى والأمم أو انحلالها وأفولها، فإنه يعطينا مؤشرات واضحة عن العوامل نفسها التي تنشئ الدول والحضارات، أو تقودها إلى التدهور والسقوط.

عند ابن خلدون تنشأ الحضارة لدى توطن العناصر البدوية في الأمصار، وتجاوزها مرحلة التنقل والرعي، معتمدة في نقلتها هذه قوة العصبية والدين[١١].

لدى هيغل ينشأ الفعل الحضاري من جدل (ديالكتيك) الأفكار ويمضي صعداً صوب مرحلة (تجلي المتوحد) حين يصل (العقل الكلي) قمة تعبيره وتمام تطابقه على حضارة العالم ومؤسساته ومن خلالهما. ويبدو (البطل) و (الدولة) ها هنا قطب الرحى في صيرورة الحركة الحضارية[١٢].

---

٤ (الأنعام: ٩٢)، (الشورى: ٧).

٥ ترد في أربعة عشر موضعاً: ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع السابق، ص ٦٦٢.

٦ (الأعراف: ١١١)، (الشعراء: ٣٦، ٥٣).

٧ (الأعراف: ١٦٣).

٨ (القمر: ٤٥)، (القصص: ٧٨)، (العاديات: ٥)، (الأعراف: ٤٨).

٩ ترد في ثلاثة عشر موضعاً: ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع السابق، ص ٥٤٣.

١٠ (هود: ٦١).

١١ ينظر: عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلامياً، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت - ١٩٨٥م، الفصل الأول.

١٢ ينظر: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٩١، الفصل الثالث، عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية، دون تاريخ، ص ٦١ - ٦٨.

بالنسبة إلى ماركس وانغلز يكون القول الفصل للجدل أو الصراع في نطاق المادة ووسائل الإنتاج، وشبكة العلاقات والظروف التي تتمخض عنها وتعمل فيها، وما ينتج عن ذلك كله من بنى فوقية تستمد مقوماتها من السياقات الثلاثة[١٣].

وطبقاً لشبنغلر فإن النشوء الحضاري يتبع قوانين البيولوجيا عبر رحلة الميلاد، والتنامي، والاضمحلال، والموت. إنها أشبه بالحتمية التي تدور عبرها التجربة التاريخية دورتها المقفلة[١٤].

أما خلفه توينبي فإن الحضارات تتشكل في منظوره من قدرة الجماعة (الشعب أو الأمة) على الاستجابة للتحديات البيئية (الجغرافية)، أو البشرية (التاريخية)، ويتناسب حجم الحضارة مع حجم الاستجابة كماً ونوعاً[١٥].

أما القرآن الكريم فإنه يقدم صيغة تختلف عن السياقات آنفة الذكر، إن الفعل الحضاري، أو العمراني يبدأ بتنزل (الوحي) وتلقي المنهج، وإعادة صياغة الوجود على هديه، ومن خلال تنزيل مطالبه ومفرداته على واقع الحياة، والعمل على تنفيذ مقاصده.

لدى ابن خلدون نلتقي الإنسان إزاء (القبيلة)، ولدى هيغل الإنسان قبالة (الفكرة)، أما ماركس وانغلز فإنهما يضعان الإنسان قبالة (الطبقة) و (وسيلة الإنتاج)، وأما شبنغلر فإنه يضعه قبالة (البيولوجيا) أو دورة الحياة، وبالنسبة إلى توينبي فإن الإنسان يجد نفسه قبالة (البيئة) على المستوى الجغرافي (المادي) أو التاريخي (البشري).

---

١٣ ينظر عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي، الفصل الثالث، فردريك انفلز: التفسير الاشتراكي للتاريخ، ترجمة راشد البراوي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة - ١٩٦٨م، ص ٦٤ - ٦٥، ١١٩ - ١٢١.

١٤ ينظر: عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي، الفصل الثالث.

١٥ ينظر: المرجع نفسه: الفصل الثالث، آرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة - ١٩٦٠م، الباب الثاني، ص ٧٩ - ٢٧١، منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٦٠م، ص١١ - ٤٦.

فإذا جئنا إلى المنظور القرآني فإننا نجد الإنسان قبالة الله سبحانه، والعالم، في موقع وسط بين المشيئة الإلهية المطلقة وقوانين الكتلة، فهو تحت كلمة الله، ولكنه فوق العالم الذي سخر له ابتداء لتنفيذ مهمته العمرانية فيه: {وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر} (النحل: ١٢).

{وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار*وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار} (إبراهيم: ٣٢-٣٣)، {ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض؟} (الحج: ٦٥)، {فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب} (ص: ٣٦)، {ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض؟} (لقمان: ٢٠).

هذا لا يعني عدم قدرة الجماعات الأخرى، التي لا تتلقى المنهج عن الله سبحانه، على إنشاء حضاراتها - إبتداء - من ذوات أنفسها وقدراتها الذاتية، ولكنه يعني الفارق المؤكد بين منطلقات ومكونات نمطين من الحضارات: إيمانية ووضعية. كما أنه لا يعني عدم وجود ثوابت وقواسم مشتركة من قوانين الحركة التاريخية (تساعد) على نشوء الحضارات ونموها، بغض النظر عن المنطلقات والأهداف.

والقرآن الكريم يقدم إشارات ذات أهمية بالغة في تأكيد هذا المعنى، من مثل: {كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا} (الإسراء: ٢٠)، {وتلك الأيام نداولها بين الناس} (آل عمران: ١٤٠)، {أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه...} (الرعد: ٤١)، {أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، أفهم الغالبون؟} (الأنبياء: ٤٤)، {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} (محمد: ٣٨)، {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا} (النساء: ١٣٣)، {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} (الشورى: ٢٠)، {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} (الحديد: ٢٥).

حجر الزاوية ونقطة انطلاق الفعل الحضاري في المنظور القرآني هي لحظة خلق آدم (عليه السلام) وفق الشروط والمواصفات التي تحدثت عنها الآيات العشر في سورة البقرة. ولكن - قبل هذا - هناك تمهيدات ذات عمق زمني موغل لا يعلمه إلا الله تأخذ الترتيب التالي :

الكون القريب ← العالم ← الإنسان

وبمقدور المرء أن يجد في الآيات والمقاطع القرآنية التي تتحدث عن هذا التمهيد، على اتساع فضائها المكاني والزماني، تأكيدًا على قصدية مسبقة تستهدف دوراً سيمارسه المخلوق القادم في الأرض: {وهوالذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} (هود: ٧)، {هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون} (يونس: ٥)، {وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا} (الإسراء: ١٢)، {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم} (البقرة: ٢٩)، {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين*لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين*بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون} (الأنبياء: ١٦-١٨)، {قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين*وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءٍ للسائلين*ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض: ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا: أتينا طائعين} (فصلت: ٩-١١).

فإذا جئنا إلى المقطع القرآني المشار إليه قبل قليل والذي ترد فيه الآيات العشر في السياق التالي: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون*وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين*قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم*قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين*وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين*فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو، ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين*فتلقي آدم من ربه كلمات فتابَ عليه إنه هو التواب الرحيم*قلنا اهبطوا منها جميعًا، فإما يأتينكم مني هدىً، فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون*والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} (البقرة: ٣٠-٣٩).

إذا جئنا إلى هذا المقطع فإننا سنجد أنفسنا قبالة شبكة من الشروط المسبقة في علم الله، والتي ستمكن آدم وذريته من بعده من أداء دورهم العمراني في العالم.

وتأخذ المسألة طبقًا للآيات المذكورة التسلسل المحكم التالي:

١ - خلافة الإنسان في الأرض التي سخرت أو مهدت له ابتداء.

٢ - منحه القدرات العقلية والنفسية والجسدية على الفعل والتعلم والاستيعاب والتخاطب.

٣ - التكريم الأدبي (أو المعنوي) بسجود الملائكة له.

٤ - مجابهته بإبليس وبدء الصراع.

٥ - الهبوط (وليس السقوط) الموقوت.

٦ - تعليق مصائر الدور البشري في العالم على تلقي الهدي (أو المنهج) عن الله سبحانه وتتريله على واقع الحياة.

فنحن - إذن قبالة ما يشبه المثلث ذا الأضلاع الثلاثة:

العالم (أو الوجود) المسخر للإنسان

الإنسان المستعمر (أو الخليفة)

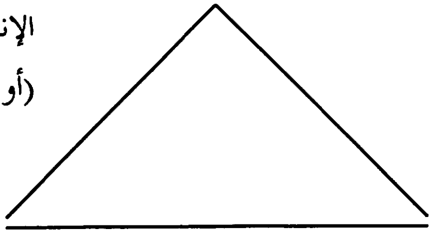

الوحي (أو المنهج) الذي يقوده عبر الصراط

وهذه الشروط الستة لا تترك أية ثغرة قد يتسرب منها الخلل أو السكون في الصيرورة الحضارية: فالوجود البشري في العالم "وظيفة" عمرانية هدفها عبادة الله سبحانه في عالم قد سخر للإنسان ابتداء. هذا الإنسان الذي منح القدرة على الفعل في مستوياته كافة: العقلية والنفسية والجسدية، والذي أوتي منذ لحظة الخلق الأولى مفاتيح "المعرفة" التي ستمكنه من التعامل مع العالم.

وحتى لا يحس الإنسان الذي سيقدر له الخروج من الجنة، بالدونية - بكل ما تنطوي عليه من سلبية - أمر الملائكة بالسجود له. ومن أجل ألا يتعرض الجهد البشري في العالم إلى الكسل والترهل والسكون، استفز بـإبليس لكي يكون الصراع بين القطبين فرصة للتدافع والقلق الفعال، والمضي إلى أعلى وإلى الأمام. ثم جاء الهبوط، الذي قدر له في علم الله، أن يكون مجرد حلقة تاريخية، ذات فضاء زمني ومكاني محدد، لممارسة الوظيفة البشرية في العالم. و لم يترك الإنسان يتخبط أو يتعرض للضياع في البيئة الجديدة التي هبط (فيها) أو عليها، فتلقى الوعد من الله بتقديم "المنهج" الذي يقوده عبر الصراط، وينقذه من الطرق "المعوجة" بواسطة أنبياء الله الكرام ومبعوثه الأمين (عليهم السلام).

إننا - إذن - إزاء معادلة ذات أطراف ثلاثة، أو عمارة من أدوار ثلاثة يقوم أحدها على الآخر ويتناظر معه وفق علاقة هندسية معمارية مرسومة: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل أو الدين هذه الأطراف التي تؤول -

بالضرورة – ومن خلال معطياتها الخاصة وطبيعة علاقتها بالطرفين الآخرين، إلى فعل حضاري.

لقد أُريد للعالم أن يكون صالحاً لاستقبال الإنسان، مناسباً لقدراته الخاصة، مستجيباً – بقدر – لمطامحه وأهدافه. وبانتظار العقل الذي سيفكر، واليد التي ستنفذ، والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد، فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المطلوب، تماماً كما سيتشكل القادم الجديد نفسه بالصيغ والشروط التي تعينه على أداء الدور.

والقرآن الكريم يحدثنا طويلاً – كما ألمحنا – عن سائر "العمليات" التي أُريد منها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات. إن التوجه الحضاري في كتاب الله يمتد إلى ما قبل آدم، إنه كل فعل امتزجت فيه إرادة الله وكلمته بالمادة فصاغتها كتلاً كونية، أو نظماً طبيعية، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الاولى من نبات أو حيوان.

وما دامت عملية بناء الكون، وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلاّ الله، وما دامت المقاييس الآدمية محدودة إزاء خلق الله، تمتاز بالنسبية والقصور، فليس لنا أن نطمع للإحاطة الدقيقة الكاملة والتفسير الشامل لقضية "التكوين" هذه، وليس لنا – كذلك – افتراض نظريات لا جدوى من ورائها. إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثاً "ميتافيزيقيا" يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين، والإسلاميين المتأثرين بهم. وهذا لا يعني – أبدًا – التشكيك بالمحاولات العلمية التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم "فعلاً" من الكون والعالم، والسعي للكشف عن قوانين بنيانهما المحكم. لأن هذا هو الموقف الذي يدعو إليه القرآن الكريم ويحض عليه في عشرات الآيات ومثاتها. إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق، والبحث عن "العلة" و "المعلول" و "متناهي الأول" و "واجب الوجود"... إلى آخره. وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماضٍ في

حركته الديناميكية نحو الاتساع الدائم بإرادة الله: {والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون} (الذاريات: ٤٧)، وإن هذه الهدفية على المستوى الكوني، وهذه الحركة صوب الاتساع لابد أن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مرارا، حيث تطوى السماء كطي السجل للكتب وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيدًا ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم: {كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين} (الأنبياء: ١٠٤).

والمهم هو أن كتلة العالم والطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، قد سخرت للإنسان تسخيرًا، وقد حدد الله سبحانه أبعادها وأحجامها وقوانينها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابيًا فاعلاً. ولنتصور كيف سيكون الحال، على مستوى القدرة على التحضر، لو كانت الشمس أو القمر - على سبيل المثال - أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقعهما المرسوم، ولو كانت الجاذبية أخف قليلاً أو أثقل قليلاً عن نسبتها المحسوبة، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من النسب المحددة، ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح، والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عموديًا... إلى آخره.

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي فإننا سنرى في العالم "تحديًا مناسبًا" للإنسان، ليس معجزًا ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري الفعال. وكأن إرادة الله سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد "الوسط" لكي يحقق الإنسان المدى الأقصى لمهمته العمرانية في الأرض. فلم يشأ سبحانه أن يمهد العالم تمهيدًا كاملاً ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية، لأن هذا نقيض مطالب الاستخلاف والتحضر التي تستلزم مقاومة وتحديًا، وإستجابة ودأبا وإبداعًا، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمته على الأرض ابتداء. كما أنه سبحانه لم يشأ أن يجعل العالم على قدر كبير من التعقيد والصعوبة

والانغلاق يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع الأمر الذي يتنافى – أيضاً – ومهمته الحضارية التي أنيطت به لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يترل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبيرٌ بصير*وهو الذي يترل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد} (الشورى: ٢٧-٢٨)، {الذي جعل لكم الأرض مهدًا وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون*والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون*والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون*لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين} (الزخرف: ١٠-١٣).

لقد استخلف الإنسان – إذن – بما أودع فيه من استعدادات ألمحنا إليها قبل قليل، في بيئة مناسبة للفعل الحضاري، وقد ترددت مسألة الاستخلاف هذه غير مرة في كتاب الله الأمر الذي يؤكد ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية: {هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا} (فاطر: ٣٩)، {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون} (يونس: ١٤)، {ويجعلكم خلفاء الأرض، أإلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون} (النحل: ٦٢)، {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملو الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} (النور: ٥٥).

فإذا جئنا إلى الحد الثالث للصيرورة الحضارية في المنظور الإسلامي وهو برنامج العمل، أو الدين بعبارة أدق، فإننا سنجد أنفسنا قبالة "منهاج" شامل للحياة، يتحرك "الإنسان" في "العالم" وفق مقولاته وتوجهاته وأهدافه، ويمارس على هديه، مهمة استخلافه العمراني على العالم الذي سخر له ابتداء.

وبدون الوحي القادم من السماء الذي يحمل المنهاج فإن الإنسان سيضيع ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة. وهكذا تلقى آدم - منذ لحظة هبوطه الأولى - "كلمات" من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل، وجاءت الرسل من بعده تترى لأداء المهمة ذاتها.

إن "الدين" وفق هذه الرؤية يبدو برنامجا حضاريا وهو يكمل ويناظر طرفي المسألة الآخرين: العالم والإنسان.

لم يقف القرآن الكريم عند حد الإخبار أو تحديد الشروط الملائمة للفعل الحضاري لحظة هبوط آدم عليه السلام، وإنما مضى عبر نسيجه كله يقدم المحفزات، وصيغ العمل، والأساليب التي تمكن الإنسان من إدامة جهده الحضاري (العمراني) ومده وإغنائه، أي - وفق المصطلح الحضاري - الانتقال بالحضارة من مرحلة النشوء إلى مرحلة النمو، فيما يبدو معه كتاب الله - بمعنى من المعاني - مشروعا حضاريا مفتوحا.

وعلى سبيل المثال - فإن القرآن الكريم يضع الجماعة المؤمنة في برنامج نشاط موصول ذي ثلاثة أبعاد: البعد التعبدي، والبعد المعرفي، والبعد العملي. وللوهلة الأولى يبدو أن البعد الأول معني بالجانب الروحي، والبعد الثاني بالجانب العقلي، والبعد الثالث بالجانب الجسدي. ولكن المسلم - على وجه الخصوص - يعرف، من خلال خبرته اليومية، وفقهه لكتاب الله سبحانه، أنه ليس ثمة فواصل في التجربة الإسلامية بين الروحي والعقلي والجسدي. وأن الممارسة التعبدية - مثلا - تنطوي على بطانة عقلية وأخرى جسدية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الممارسة المعرفية أو العملية.

إن كل ممارسة في المنظور الإسلامي، عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه، وقد جعلت الأرض كلها، كما يقول رسول الله ﷺ (طهورا ومسجدا)[١٦]. وإذا كان الذكر هو لب العبادة، والشعائر الخمس هي الالتزامات التعبدية في حدودها الدنيا، فإن الفضاء يظل مفتوحا للمزيد من التعبد، ليس فقط بالممارسة الروحية، وإنما - أيضا - بالعمل والمعرفة، ويصبح أي جهد

---

[١٦] رواه مسلم ج٢/٦٤، كتاب المساجد، ورواه البخاري بلفظ آخر، ط محمد علي صبيح، القاهرة.

عقلي أو جسدي، إذا أريد به وجه الله، تعبدًا لله وتقربـًا إليه، كما تصير العبادة نفسها مشروعـًا عمليـًا ومعرفيـًا لترقية الحياة وإغنائها.

ومهما يكن من أمر فإننا، إذا جئنا إلى كل واحد من السياقات الثلاثة فإننا سنلحظ بوضوح ودون أية محاولة للإقحام، كيف أنه يمارس دوره في شحذ مهمة الإنسان العمرانية في العالم وحمايتها من التآكل أو السكون.

فالعبادة تمضي بالإنسان، والجماعة، صعدًا عبر مواقع الإسلام والإيمان والتقوى فالإحسان، لكي تجعلهما إزاء الحضور الإلهي في أقصى حالات التوتر الفعال والأداء في وتائره العليا، وهي مسألة ذات ارتباط أكيد بالمعطى الحضاري. هذا إلى أنها تمارس دورًا تحريريـًا للإنسان إزاء كل الطاغوتيات والصنميات والحتميات وعوامل الشد والإعاقة التي تكبله عن التعبير عن طاقته ولنا أن نتذكر - مرة أخرى - كيف أن العبادة في المنظور الإسلامي لا تقتصر على الشعائر المحدودة في الزمن والمكان فحسب، وإنما تمضي إلى كل جهد بناء، أو إضافة ذات غناء يبتغي بها المرء وجه الله سبحانه.

إن عبادة الله وحده، بالمفهوم الشامل، هي الهدف الذي يتحتم على الإنسان فردًا وجماعة، أن يصعد إليه أوجه أنشطته كافة {وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون*ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون}. وفي الوقت الذي ترسم المذاهب الوضعية - هي الأخرى - أهدافـًا لحركتها الحضارية، تتميز - حينـًا - بالغموض والمثالية، كما هو الحال عند هيغل، وتتميز - حينـًا آخر - بالتحديات المادية الصارمة، كما هو الحال عند ماركس وانغلز، الأمر الذي قاد الأول - وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال الدولة، - إلى أن يعطيها المبررات الفلسفية سياستها العدوانية التي قد تقود إلى الدمار الحضاري والظلم البشري، وقاد الآخرين إلى تبني مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق أهدافها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ عدد لا يحصى من المجازر الجماعية تجاه القوى المعارضة فيما هو نقيض التحضر والعمران.

في الوقت الذي ترسم المذاهب الوضعية أهدافًا كهذه نجد الموقف الإسلامي يحدد هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب الفاعليات والمعطيات كافة: عبادة الله، والتوجه إليه، والتلقي عنه، لكي تتوحد في ممارساتها مع النواميس الكونية الشاملة، والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان إلا لكي يعتمدها باختياره في التساوق مع هذا النظام، والاندماج في المجرى العام للخلائق جميعًا، تمييزًا له - بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ومكانته كسيد للعالمين - عن سائر خلق الله.

وثمة فرق شاسع، على كل المستويات الذاتية والحضارية والاجتماعية، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الوجود، متناغم مع مسيره ومصيره، أو وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءًا ومصيرًا.

أما الجهد العقلي أو المعرفي فقد أريد له - ابتداء - أن يكتشف سر الأشياء، وينقب عن السنن والنواميس، ويتعرف على العالم الذي سخر له ابتداء، من أجل ابتكار وتقديم التيسيرات الضرورية في حياة المؤمن، فيتمكن - بذلك - من التحرر من شد الضرورات وضغوطها، والتمخض أكثر فأكثر لله.

إننا نجد، من بدء القرآن إلى منتهاه، خطابًا معرفيًا يرفع نداءه بالمفردات التي تتردد في جنبات كتاب الله: اسمعوا، أبصروا، سيروا، تفكروا، تدبروا، تفقهوا، اعلموا...إلخ. عبر عشرات المواضع ومثاتها، وهو هنا لا يريد المعرفة لذاتها، وإنما لتحويلها إلى أداة صالحة لتحقيق المهمة العمرانية في العالم، وتمكين الجهد التعبدي من مواصلة الطريق[١٧].

أما (العمل)، وما يرتبط به من دعوة مؤكدة في عشرات المواضع، للإصلاح ووقف الإفساد والتخريب، فيكفي أنه ورد في كتاب الله، بتصريفاته المختلفة أكثر من ثلاثمائة مرة، كأنه يريد تذكير المؤمن بأن عليه أن يعمل على مدار

---

[١٧] ينظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة - ١٩٨٥م، ص٤١ - ٦١.

السنة ذات الثلاثمائة والستين يومـاً، لا يكل ولا يتكاسل، (فمن استوى يومه فهو مغبون)[١٨] كما يقول رسول الله ﷺ.

إننا نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} (التوبة: ١٠٥)، ونتذكر حديث الرسول ﷺ: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر"[١٩]، فنعرف كيف أن الدور الحضاري للإنسان والجماعة المؤمنة يقوم على العلم والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى حتى ساعة الحساب، ونعلم كيف أن الحياة الإسلامية يجب أن تكون فعلاً إبداعياً موصولاً.

إن العمل – على ذلك – هو المحور الأساس لوجود الإنسان فرداً وجماعة على الأرض وبمعياره يتحدد المصير في الدنيا والآخرة، وهو موقف ينسجم تماماً مع مبدأي "الاستخلاف" و "الاستعمار" اللذين أشرنا إليهما.

والعمل في المنظور القرآني لا يتشكل بمعزل عن الإيمان، ولكنه مشروط به، وطالما أكدت المعطيات القرآنية على حقيقة أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين: الإيمان والعمل الصالح: {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملو الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} (العصر: ١-٣)، {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...} (آل عمران: ١١٠).

والإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء بمثابة "معامل حضاري" يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً، كما أنه يمتد

---

[١٨] رواه السخاوي بسند ضعيف في المقاصد الحسنة، ص٤٠٢. ط دار الكتب العلمية، بيروت.

[١٩] ذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس (رضي الله عنه): (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العيني: باب الحرث والزراعة.

في العمق ليبعث في الإنسان الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه في سباق زمني لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته، ويعبر عن قدراته التي منحه الله إياها، على طريق (القيم) التي يؤمن بها و (الأهداف) التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعاً - في المنظور الإسلامي - عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله.

ومع (العبادة) و (المعرفة) و (العمل)، هناك دعوة قرآنية مؤكدة لتوظيف (الزمن) و (المكان) وهي مسألة ذات أهمية بالغة في نشوء الحضارات ونموها.

والقرآن الكريم يصف المؤمنين الجادين بأنهم {يسارعون في الخيرات} (آل عمران: ١١٤)، (الأنبياء: ٩٠)، (المؤمنون: ٦١)، وأنهم {لها سابقون} (المؤمنون: ٦١). والمسارعة والسبق مفردتان تحملان دلالتهما الزمنية على ضرورة توظيف الزمن باعتباره الفرصة التي منحها الله للإنسان حيث يتحتم عليه الإحسان في التعامل معها.

ومع توظيف الزمن دعوة لتوظيف المكان، والتعامل بجدية مع الكتلة التي سخرت للإنسان ابتداء، والتي صيغت سننها وأبعادها بما ينسجم ومهمة الإنسان العمرانية في العالم شريطة أن يشمر عن ساعد الجد ويعمل عقله وجهده لاكتناه سرها وتوظيف طاقاتها لأداء مهمته في الأرض.

والملاحظ في علاقة الإنسان بالكتلة أو المكان، أنها في الإسلام تأخذ طابع الألفة والتناغم والانسجام مع العالم، ومحاولة التعرف عليه وتوظيفه، كما أنها تصور العالم ليس خصماً غامضاً يقف في مواجهة الإنسان فيدفعه هذا إلى غزوه وهتك سره وإشهار الحرب ضده، إنما خادم مطيع لمطالب الإنسان وضروراته.

P.126

وإذا كانت الكتلة في بعض المذاهب الوضعية تتحول إلى حتميات تقهر الإنسان وترغمه على الخضوع لمقولاتها، وإذا كانت في مذاهب أخرى خصماً يتحتم غزوه، فإنها في المنظور القرآني تأخذ موقعها الملائم في خدمة الإنسان، تخضع وتعطي، إذا أحسن التعامل معها، ولا تقهر وتستعبد كما هو الحال في العديد من النظريات والمذاهب الوضعية.

وفي كل الأحوال يغدو الزمن والمكان، في المنظور القرآني، فرصة مضافة لأداء الدور العمراني، وفضاء ملائما لنشوء الحضارات وازدهارها.

ويبدو الصراع في القرآن الكريم فرصة، أو آلية أخرى، للفعل الحضاري، ويجب أن نتذكر أنه في الإسلام لا يغطي الصراع مساحة التجربة كلها (كما هو الحال مثلا في بعض مذاهب التفسير التاريخي وبخاصة المادية التاريخية) فهنالك، وبموازاته عنصر التناغم والتوافق الذي يغطي المساحة الواسعة ومهما يكن من أمر فإنه في القرآن الكريم يحمل خصوصياته بالمقارنة مع المذاهب الأخرى.

إن أبرز معطيات (المثالية) الهيغلية تتمثل في ذلك التأكيد الدائم على أن الحركة الحضارية تحقق مسيرها صوب الأكمل والأحسن عن طريق الصراع المستمر بين النقائض في عالم الأفكار. وجاء رواد التفسير المادي (ماركس وانغلز) لكي يأخذا عن هيغل مقولته في صراع النقائض كأساس للحركة الحضارية، وسحبها من عالم الأفكار إلى عالم المادة، ووسائل الإنتاج على وجه التحديد، تلك التي تخلق ظروفها الإنتاجية فصيغها الحضارية. واتهم الرجلان هيغل بأنه صنع رجلا يمشي على رأسه، ولكنهما وهما بصدد تعديل الوقفة أخطأ المحاولة فصنعا رجلا يمشي على بطنه. وعندما جاء توينبي قدم نظريته في (التحدي والاستجابة) مفسرا بها حركة الحضارات نشوءا ونموا وتدهورا وانحلالا، وهي في نبضها تقوم على الجدل أو الصراع بين الإنسان والبيئة الجغرافية أو الظرف التاريخي، مانحة الإنسان والجماعة فرصتهما في الاختيار وتقرير المصير بخلاف العديد من المذاهب الأخرى.

بمجرد أن نرجع ثانية إلى واقعة خلق آدم فإننا سنلتقي بهذا المقطع ذي الارتباط الوثيق بمسألة الصراع: {...وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين*وقلنا: يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين*فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين...} (البقرة: ٣٤-٣٦).

فمنذ لحظات الخلق الأولى ينفجر الصـــراع باتجــاهين: بــين الإنســان والشيطان، وبين الإنسان والإنسان. ثم ما يلبث أن يمتد إلى مساحات واســعة تضم جناحيها حتى على الفضاء المكاني الذي يتعامل معه الإنسان، حيث نجــد أنفسنا قبالة التضاد الموزون بين السالب والموجب، والتركيب الزوجي الــذي يتجاوز عوالم الحياة على اختلاف درجاتها، إلى صميم المادة. وهـــو في كــل الأحوال مصدر التوليد والتكاثر والحركة والاتساع[٢٠].

على مستوى الإنسان والبشرية يأخذ الصراع، أو التقابل الثنائي الفعــال، أكثر من صيغة، ويمتد إلى أكثر من اتجاه. فـــهناك الصــراع بــين الإنســان والشيطان، وهو صراع شامل واسع معقد متشابك.. إنه تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات.. تقابل لابد منه إذا ما أريد للحياة البشــرية أن تتجــاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة. إنه ابتــلاء فعال لن يأخذ تاريخ البشرية - بدونه - صيغته الإيجابية ولا يمضي إلى غاياتــه الموسومة منذ هبوط آدم إلى يوم الحساب: {كل نفس ذائقة الموت، ونبلوكــم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون} (الأنبياء: ٣٥)، {ولقد فتنا الذين من قبلــهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} (العنكبوت: ٣)، {ليجعل مــا يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض} (الحج: ٥٣)، {يـــا بــني آدم لا يفتننكم الشيطان} (الأعراف: ٢٧).

على مستوى الإنسان نفسه يأخذ الصـــراع، والتنــوع، والاختــلاف، والتضاد، صيغــا شتى، تستقطبها كلمتا الإيمان والكفر، أو الحق والباطل، ومن خلال الصراع المتطاول بين الأضداد تتحرك مياه التــاريخ، فــلا تركــد ولا تسكن، وتحفظ بهذا قدرتها على التجدد والنقاء.

إن الإرادة الحرة والاختيار المفتوح اللذين منحا للإنسان فــردا وجماعــة، للانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك يقودان - بالضرورة - إلى عدم توحد البشــرية وتحولها إلى معسكر متشابه واحد أو أرقام في جداول رياضية صماء.. إن قيمــة

---

[٢٠] ينظر: (الشعراء: ٧)، (لقمان: ١٠)، (ق: ٧)، (الذاريات: ٤٩)، (عبس: ٣٦)، (الزخــرف: ١٢)، (طه: ٥٣).

الحياة الدنيا وصيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة، المتضادة، الموزعة، وإن حكمة الله سبحانه شاءت، حتى بالنسبة إلى الكتلة أو المعسكر الواحد أن تشهد انقساما وتغيرا وتنوعا وصراعا تمييزا لها عن حياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سلما: {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير} (الشورى: ٨)، {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات} (المائدة: ٤٨)، {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين* إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم...} (هود: ١١٨-١١٩).

بل إن القرآن، انطلاقا من رؤيته الواقعية، يبين في غير موضع كيف أن (الأكثريات) البشرية تقف دائما بمواجهة الحق الذي لا تنتمي إليه إلا القلة الطليعية الرائدة، نظرا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء دائم لا يتقبلها الكثيرون[٢١].

وكثيرا ما يكون اختلاف الألسنة والألوان، والذي يعقبه تغير الثقافات والأجناس، أحد العوامل المؤثرة التي تكمن وراء الصراع البشري المحتوم[٢٢].

أما الهدف من وراء هذا التغاير الذي يعقب تنوعا وتدافعا وصراعا، فهو - مرة أخرى - تحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تصقل قدراتها قبالة التحديات المتعاقبة التي يفرضها التدافع، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفذ أمر الله سبحانه في العالم: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} (البقرة: ٢٥١)، {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيا اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز*الذين إن مكناهم في

[٢١] ينظر: (المؤمنون: ٧٠)، (الزخرف: ٧٨).
[٢٢] ينظر: (الروم: ٢٠-٢٢).

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} (الحج: ٤٠-٤١).

هذا إلى أن الصراع يغدو ميدانا حيويا، للكشف عن مواقف الجماعة البشرية والتعرف على أصالة المؤمنين. ففي جحيم المعارك، وعلى وهجها المضئ يتضح الذهب من التراب، ويماز الطيب من الخبيث، ويسقط كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددين عن مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} (محمد: ٣١)، {وليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه عل بعض فيركمه جميعا...} (الأنفال: ٣٧)، {ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض} (محمد: ٤).

وفي الوقت الذي تسعى بعض المذاهب الوضعية إلى تصور عالم لا صراع فيه (المثالية في مرحلة تجلي المتوحد والمادية التاريخية في مرحلة حكم البروليتاريا) يسوده السلام والمحبة، فتتجاوز بهذا واقعيتها وتغفل عن أصول الحركة الحضارية، نجد القرآن الكريم يقدم رؤية واقعية، ويتعامل مع تجارب واقعة وينبثق عن تصور يجمع الماضي والحاضر والمستقبل، فيؤكد ظاهرة الصراع من جهة، ويقر من جهة أخرى التمايز الأبدي للشعوب والأقوام والجماعات، ويصعد - من جهة ثالثة - صيغ الصراع والتدافع حتى ليصل بها إلى مرحلة التعارف والتعاون دون أن يتجاوز بهذا واقعيته أبدا: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...} (الحجرات: ١٣).

أما دور الإنسان والجماعة المؤمنة في ميادين الصراع الدائم فيأخذ اتجاهين: أحدهما ذاتي يمارسه الإنسان المسلم فيما سماه الرسول ﷺ : (الجهاد الأكبر) لما يتطلبه من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرد، وهو يهدف إلى مواجهة الإنسان لذاته وتغييرها تغييرا حركيا مستمرا من أجل أن يسقط عنها كل النزاعات والشهوات والممارسات السلبية التي من شأنها أن تصدها عن التحقق العقدي الذي يتطلب شروطا نفسية وأخلاقية

وذهنية. وبدون هذا الجهد المتواصل من أجل تغيير الذات فإنه لا ينتظر حدوث تغيير أساسي على مستوى الصراع الخارجي في العالم: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...} (الرعد: ١١).

وأما الاتجاه الثاني فهو ما يصطلح عليه القرآن والسنة باسم (الجهاد) وهو يتضمن كل أشكال الصراع الخارجي على الإطلاق: مذهبيا وسياسيا وعسكريا وأخلاقيا واقتصاديا وحضاريا، وهو - بهذا - يحتل مساحة للحركة أوسع بكثير من تلك التي تحتلها صراعات التفسير الوضعي وبخاصة المثالية والمادية. كما أنه يتضمن ديمومة زمنية يعبر عنها حديث الرسول ﷺ (الجهاد ماض منذ أن بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال)[٢٣].

إن القرآن الكريم يبين لنا كيف أن هذا الجهاد هو صراع دائم بين معسكرين كبيرين كل منهما ينتمي إلى فكرة، ويلتزم موقفا، ويعمل في سبيل: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت} (النساء: ٧٦)، وسواء تم النصر لمعسكر الإيمان في مراحل تاريخية محددة، كما حدث - فعلا - لعديد من الأديان السماوية الكبرى، أم أنه سيتم - ثانية - لحساب الإسلام، كمحصلة نهائية للموقف الديني في يوم قريب أم بعيد: فإن جهاد المؤمنين ماض في بقاع العالم، بكل وسيلة شريفة، وإلى يوم القيامة، وهو الذي حركهم، ويحركهم دوما لتحقيق كلمة الله: {والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (يوسف: ٢١).

إن الجهاد - سواء بالكلمة والحوار أم القوة والصراع وفق مقتضى الحال - يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها الحضارية في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة أمام التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع (الشهادة) على الناس، ذلك الموقع (الوسط) المميز، المتفرد، الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم على كل الجبهات: أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وحوارا بالكلمة وكفاحا مسلحا: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} (البقرة: ١٤٣).

---

[٢٣] رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب الغزو مع أئمة الجور.